من تراب الطريق! (١٩٥)

الخيال رحم [*] العقل الخصيب !

يلحظ المراقب المتابع لأحوال الآدمى، أن اللغة قوام حياتــه، ووعــاء تفكيره، وأداة تواصله .. وأنه صــار بفــضلها كائنــا خلاقــا .. قبهــا وبمفرداتها القديمة أو المستحدثة يطلق على ما يتصوره أو يخاله أو يتخيله أو يجده أو يوجده - اسمــاً أو أسمــاء، فيصبح للمسمــى عند الآدمــى أو الآدميين وجود يطول أو يقصر .. يتعامل معه أو ضده أو بنــاءً عليــه أو أخذاً منه أو رجوعاً إليه !

خذ مثلاً كلمة " الكون " .. تطلق على كل موجود فى الحاضر أو كان موجوداً فى السالف أو ما سيكون موجوداً فى المستقل .. أيــن وكيــف ولماذا ؟ لا تسأل ولا ينبغى لك أن تسأل . البدائيون استعملوا كلمة الكون أو ما فى مدلولها طبقا لفهمهم وزمانهم ومحيطهم، والمتحضرون فى كل حضارة استخدموها دون أن يلفت نظرهم قط أنها تغطى أوسع منطقة من الإبهام والغموض والبعد عن اليقين والتحديد والبعد بالتالى عن الوضوح وإمكان الرؤية الكاشفة المفسرة - بالنسبة للعقل البشرى .. حتــى عقــل علماء الفلك والفيزياء والذرة والكيمياء والرياضــة البحتــة الآن وإلــى مستقبل طويل !

ومع ذلك ترى الكل يستعمل كلمة " الكون " بلا أى تــردد : الــصغار والكبار، النساء والرجال، فى الريف والحضر .. نثراً وشعراً .. لا يخلــو

(*) المال ٢٠٠٩/١/١٩

منها دين ولا دنيا ولا أسطورة أو علم أو فن . هذه الكلمة حقيبة سحرية تحتوى على كل ما يجهله الناس فى كل عصر وقطر، وكل ما يتصورون أنهم يعرفونه وهم فى الواقع لا يعرفونه، وكل ما يعتقدون أنه فى ظنهم قد وقع وهو لم يقع قط، وكل ما يقدرون وقوعه مما لن يقع أبدا !!

ضمن هذه الحقيبة السحرية المفعمة بالغموض والمجهول ــ ولد ويولد كل آدمى وليس معه إلاّ عقل مشتاق إلى المعرفة .. يطفئ شوقه إليها بخياله، ويطفئه فى أكثر الأحيان - بما يخلقه من الأسماء التى لا تجهد خياله، وكلما عمت هذه الأسماء أو اتسع مدلولها - كانت أطول عمراً وأكثر انتشارا وأعصى على أن يكذبها واقع حياة الآدمى القصيرة المليئة بالهموم والشواغل !

والفارق فى هذا ليس كبيراً جداً بين من يوجد فى مكتبة حافلة بأمهات الكتب والمراجع وصنوف العلوم، وبين بسيط يعيش فى حقل أو ورشة، أو بين السوقة .. فقد تظهر الكتب كثافة ذلك الغموض وقد تزيدها، وقد تخفف بعض الغموض خشونة الحقل أو ضجة الورشة أو سكار السوق !

كان من نتح ما درج ويدرج عليه الناس، أن فقد الخطاب بعامة ما يجب أن يكون له من ضبط وتحديد، وأن فقدت كثير من الكلمات معانيها، وانفصمت الصلة بين الكلمة والفعل أو السلوك، وجعلت الكلمات تحل شيئا فشيئا محل الأعمال، دون أن يتفطن القائلون أنهم لا يفعلون شيئا، وإنما يقيمون تلالاً فوق تلال من كلام يصير مع التراكم وفقدان الفهم إلى لغو فى لغو، لا يحدث طحناً ولا يقدم ناتجاً ولا حصادا !!!

الخيال النشط رحم العقل الخصيب .. دونه يكون العقل جهازاً عقيماً .. يخفق صاحبه فى الائتلاف والمحبة وحسن العشرة والجوار .. وهذا حال كثيرين من المتعلمين، لأن التعليم والتعلم لا يطلب له ولا يقوم على إنكاء الخيال وتنشيطه .. ومع كثرة المتعلمين عندنا وعند غيرنا نجد

القادة الأكفاء القادرين على إشعال الحماس والتساند وبناء الـود والـدأب طويلى الأجل - قليلين جداً .. بينما نجد زيادة هائلة فى أعـداد الرافـضين الساخطين ضيقى الصدور والأفكار، المولعين باكتـشاف أخطـاء الغيـر ونواقصهم، المتعصبين المنتصرين دائماً لآرائهم، لأن خيـالهم الـضيق لا يمكن أن يتسع لرؤيةٍ أخرى خلاف ما استصوبوه واعتنقوه !!!

وأعجب العجب إنكار أهل الأديان نشاط الخيال عند الأنبياء أصـحاب الرسالات .. مع أن هذه الصفة وتلك القدرة من عناصر اصطفاء الـسماء لهم، ومن أسباب ومقومات نجاحهم فى حمل وتبليغ رسالاتهم وبقائها حتى الآن حية قابلة للحياة !